الفصل الثالث

شيوع الزهد بين العلماء

الغاية

تتركز الغاية من وراء هذا البحث هنا على إبراز كون الزهاد من بين العلماء، وكون الزهد ارتبط بالعلم ارتباطًا وثيقًا، وقد انعدمت التفرقة بين من تسمى بالزاهد ومن تسمى بالعالم، على عكس ما صار إليه الحال عند الصوفية فيما بعد كما سنبين في محله، وما دام الأمر كذلك فلا عجب أن نرى انتشار نـــزعة الزهد بين صفوف العلماء أيًّا كان الاتجاه العلمي الغالب عليهم.

دواعي الشيوع

المتتبع لما قلناه في الفصل السابق يدرك أن الإسلام هو العامل الأصيل في بعث فضيلة الزهد بين المسلمين المخلصين، ولما كانت العلوم التي نشأت في الأمة سواء أكانت دينية في موضوعها وغايتها كالتفسير والحديث والفقه أم في غايتها كاللغة فإنما استحدثت لخدمة هذا الدين، وقامت أساسًا مرتكزةً على مبادئه وفيةً لأغراضه ومراميه وأسراره وحكمه.

ولذا فمن الطبيعي أن تتجاوب نفوس كثير من العلماء في أي فرع من فروع العلم الديني مع دعوة الإسلام إلى الزهد وتنصاع لها، ويحدو بهم علمهم ذو الأواصر الدينية الوثيقة إلى ترك الرغبة في الدنيا، والإقبال على اللـــه سبحانه، والتطلع إلى السعادة الدائمة في الآخرة إلى درجة أن تعجب عبد اللـــه بن المبارك المتوفى (١٨١هـــ) من أي طالب علم كيف تدعوه نفسه إلى محبة الدنيا مع إيمانه بما حمل من العلم؟![1]؛ لأنه لا يجتمع في نظره كثرة العلم مع قلة الخوف

---

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى ج١: ٤٠.

والزهد[1]، بل العلم هادٍ إلى الترفع عن الدنيا وزينتها وإلى الاتصاف بخصائص الزهد من خوف ورهبة ومحبة، وبالتالي: فيشترط للعالم ألا تخطر الدنيا على باله[2] كما أن من الدواعي التي ساعدت على شيوع الزهد بين العلماء في كل فرع محاولة تقليد الصحابة في مسلكهم خاصة أنهم إما أساتذة مباشرون لبعض الزهاد من التابعين، وإما غير مباشرين لتابعي التابعين رضي اللـــه عن الجميع.

وقد بلغ من قوة الالتزام، ودقة الاقتداء أن وصل بعض العلماء من الزهاد إلى درجة تقترب في العلم والتطبيق مما كان عليه الصحابة دونما تفرقة إلا بالصحبة، وعَدَّ ابن إسحاق عبد اللـــه بن المبارك منهم حيث قال: نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك فما رأيت لهم فضلاً إلا بالصحبة[3]، لما بلغه هذا العالم الزاهد، وبما أن الزهد سمة غالبة على حياة الصحابة؛ فإن كثيرًا من طالبي العلم تأثروا بهم وقلدوهم فيه؛ لذا شاع الزهد وانتشر بين صفوف العلماء الذين ضمتهم بطون كتب الطبقات، واهتمت إلى جانب إظهار علمهم بإظهار جوانب الزهد والتقلل، ورغبتهم الشديدة في الإقبال على ما ينفع، ولا بأس أن نسوق نماذج من الزهاد في كل فن من فنون العلم.

زهاد في كل حلقة

لو جلسنا بين حلقات الدروس لوجدنا فيها زهادًا يدرسون أو يعلمون:

(أ) فنرى بين الفقهاء سليمان بن يسار (١٠٧٨هـــ) مولى ميمونة زوج رسول اللـــه ﷺ وأحد فقهاء المدينة، وقد روى عن ابن عباس وأبي هريرة وأم سلمة، وروى عنه الزهري، فهو فقيه وصاحب حديث ثقة حجة، وهو

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة: ج٢: ٢٤٧.

معدود من العباد والزهاد المتقللين[1]، كما اتصف الإمام أبو حنيفة (١٥٠ هـ) بالورع والزهد والتفكر والصمت وأكد على أن من أوتي الصمت والزهد فقد أوتي العلم كله، ورأى أن الملح مع الخبز شهوة، واشتهر بالاجتهاد في العبادة؛ حتى سَمّوه الوتَدَ؛ لكثرة صلاته، وكان لبكائه صدىً عند جيرانه، وما كان أصحاب زفر بن هذيل (١٥٨هـ) يقدرون على ذكر الدنيا عنده لزهده، وذكروا أن الخوف قتله حسبما ساق يحيى بن معين[2] إلى غير هؤلاء من زهاد الفقهاء كالإمام مالك والشافعي.

(ب) وَعَدَّ ابنُ النديم الفراءَ النحوي الكوفي من أشهر زهاد مدرسته[3]. واعتبر الخليل بن أحمد (١٠٧هـ) أحد الزهاد في الدنيا والمنقطعين إلى العلم، وطلبه سليمان بن علي من الأهواز لتأديب أولاده فأخرج خبزًا يابسًا وقال: ما عندي غيره وما دمت أجده فلا حاجة لي إلى سليمان[4] وارتضى مسكنًا في البصرة لا يقدر بفلسين وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال[5] مما يؤكد انتشار الزهد بين علماء اللغة ودارسيها.

(جـ) واشتهر من بين رجال الحديث بالزهد والرواية والعلم محمد بن عبد الله أبو بكر الزهري (١٢٣، ١٢٤، ١٢٥هـ) روى عنه الإمام مالك وقال: ما أدركت فقيهًا محدثًا غير واحد: ابن شهاب الزهري[6] وقال: لم أر أحدًا

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢: ١٣٥.

(٢) انظر الشعراني في الطبقات الكبرى ج١: ٤٥-٤٦ ومفتاح السعادة ج٢: ٢٤٧ وابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢: ٢٣٧ وابن سعد الطبقات الكبرى ج٧: ١٠٥.

(٣) ابن النديم: الفهرست: المقالة الثانية: ٦٤.

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) نفس المرجع السابق.

(٦) ابن الجوزي صفة الصفوة: ج٢: ٧٨، ومفتاح السعادة ج٣: ٣٦٠.

أهون عليه الدينار والدرهم من ابن شهاب[1].

وأيضًا برز في الزهد مع الحديث شعبة بن عباس (١٩٣-١٩٤هـ).

وفاقهم في تلك النزعة سفيان بن عيينة (١٩٨هـ) الذي كان ثبتًا حجة ورعًا روى عن الزهري وابن إسحاق السبيعي، وعمرو بن دينار ومحمد بن المنكدر، وروى عنه الشافعي وشعبة بن الحجاج ومحمد بن إسحاق وابن جريج والزبير بن بطار، وقد عرف بجهاد النفس والتقشف والانتفاع بالعلم في السلوك، ونصح كل من لاقاه بهذه الثلاثة، ونبه على أن إصلاح النفس وتقويمها وتصفيتها وجهاد مطامعها وإخلاصها لله هو تسعة أعشار الجهاد بينما العشر الباقي لجهاد العدو، واستعان على ترويض نفسه بأن عاش على رغيف الشعير ستين عامًا لا يتناول من أحد شيئًا، يستوحش من جميع الناس صابرًا محتسبًا، ويؤكد على أن الذي دفعه إلى هذا السمت هو العلم النافع، والذي إذا خلا من هذا التقويم فلا عليك ألا تعرفه[2].

(د) وساق لنا الذهبي في معرفة القراء الكبار جمعًا من الزهاد الذين قرأوا وأقرأوا منهم عبد الله بن حبيب بن ربيعة (٧٣-٧٤هـ)، وهو ابن صحابي تعلم من أبيه الزهد ورفض أن يأخذ على القرآن أجرًا[3]، وقرأ على عثمان وعلي وزيد وأُبيّ وحدث عن عمر وعثمان، وأخذ عنه عاصم بن أبي النجود ويحيى بن وثاب وعطاء بن السايب وعبد الله بن عيسى.

أما سعيد بن جبير (٥٧هـ) فقرأ على ابن عباس، وحدث عن عدي بن

---

(١) نفسه.
(٢) وفيات الأعيان ج٢: ١٢٩.
(٣) الذهبي: معرفة القراء الكبار ج١: ٤٥-٤٨.

حاتم وابن عمر وأبي هريرة وعبد الله بن معقل، وروى عنه الأعمش وجعفر بن أبي المغيرة ومحمد بن سوقة، ولسَعَة علمه أطلقوا عليه جهبذ العلماء، ووصفه الذهبي بأنه من سادة التابعين علمًا وفضلاً وصدقًا وعبادة[1] وقال ربيعة الرأي: كان سعيد بن جبير من العلماء العباد[2]، وظل طوال حياته بكّاء؛ حتى عمشت عيناه.

كما يعتبر حمزة بن حبيب بن عمارة الكوفي (١٥٦هـ) أحد القراء السبعة؛ لكونه من أعلم وقته بالقرآن والفرائض، وقال عنه الكسائي: هو إمام من أئمة المسلمين، وسيد القراء والزهاد لو رأيته لقرت عينك به من نسكه[3]، وأضاف الذهبي: كان إمامًا حجة قيمًا بكتاب الله حافظًا للحديث بصيرًا بالفرائض والعربية عابدًا خاشعًا قانتًا لله ثخين الورع عديم النظير[4].

(هـ) ويعتبر عمرو بن عبيد المتكلم (١٤٤هـ) من أشهر المعتزلة في العلم والزهد والاجتهاد في العبادة؛ حتى ربع بين عينيه من أثر السجود، وقد وصفه الحسن البصري قبل أن يعتزل فقال: كأن الملائكة أدبته، وكأن الأنبياء ربته إن قام بأمر قعد به، وإن قعد بأمر قام به، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهرًا أشبه بباطن ولا باطنًا أشبه بظاهر منه[5] ورثاه المنصور فأنشد:

صلى الإله عليك من متوسِّد ... قبرًا مررت به على مران

قبرًا تضمن مؤمنًا متحنفًا ... صدق الإله ودان بالعرفان

---

(١) الذهبي : معرفة القراء الكبار ج١: ٥٦.والشعراني في الطبقات ج١ :٣٦.

(٢) نفسه.

(٣) معرفة القراء ج١: ٨٩٣.

(٤) نفسه.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣: ١٣١-١٣٢.

لــو أن هــذا الدهــر أبقى صالحًا أبقــى لــنا عمــرًا أبــا عثمان[1]

(و) ولقد تغلغلت نــزعة الزهد في البيوت الحاكمة وقصور الخلفاء؛ حتى اشتهر عبد الملك بن مروان بالعبادة والنسك والفقه[2]، وكان المنصور تخالطه أبهة الملوك بزي النساك[3]، وسبق أن أشرنا إلى أحمد بن هارون الرشيد السبتي، وهذا كلــه يدل على أن الزهد قد سرى وتملك نفوس الأصفياء من العلماء ومن بين رجال السياسة فأنساهم غرور الدنيا، وذكرهم دائمًا بالآخرة، وتعقيبًا على هذا الجزء من الحديث نقول:

إذا ورد في تصنيفنا هذا من الفقهاء، وهذا من رجال الحديث أو القراء أو النحويين أو المفسرين إلى آخره؛ فإنه إطلاق على سبيل ما غلب على العالم من علم، أو اشتهر به؛ لأن الفاصل بين العلماء بالنسبة إلى الاشتغال بالعلم لا يبدو بعيدًا، ولا يمكن في أكثر الأحيان أن نقول: هذا فقيه فقط، أو محدث فقط فحسب نبوغ العالم في أكثر من علم، وحوزة الفقيه للنحو والحديث والتفسير مثلاً، وهذا يعني أن التخصص البحت كان غير موجود؛ حيث كان ذهن العالم يتسع لأكثر من فن وعلم.

والزهاد كرجال بين هؤلاء العلماء وصفوا بهذه السعة العلمية في كل المجالات؛ ولذا تعمدنا ذكر روى عن فلان وروى عنه فلان، وسقنا الجوانب العلمية التي نبغ فيها كالقراءة والرواية أو الفقه والحديث، وبان أمامنا كيف يعد الزاهد بمسلكه واحدًا من المتقللين وفي نفس الوقت يذكره الفقهاء أو المحدثون أو المفسرون بينهم.

---

(١) نفسه.

(٢) ابن شاكر: فوات الوفيات ج٢: ١٤.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج١٠: ١٢.

وإن كان لهذا من دلالات واضحة؛ فإنما تدل على ارتباط حركة الزهد بالعلم، وأن رجالها انبثوا بين جميع طوائف العلماء وزاحموهم بالمناكب في حلقات العلم.

كما أننا ذكرنا بعض البلدان كالبصرة والكوفة والمدينة؛ لنؤكد على أن النـــزعة سرت في نفوس الأتقياء من كل وطن، وأنها ربطت بصفة خاصة بين أربابها، وإن اختلفوا في الفروع أو المشكلات العلمية إلا أن تيار الزهد كان كفيلاً أن يوحد بينهم وإن تعددت المذاهب، ونأت الديار، أو اختلفت الاتجاهات السياسية، وكانوا جميعًا طائفة واحدة وعلى طريق واحد؛ حيث لم تنشأ بعد الطرق المتعددة التي صارت إليها الحركة الروحية فيما بعد.

وهم إن انتسبوا لمدارس متعددة لكل منها طريقة خاصة في معالجة العلم، ومنهج معين وخصائص مميزة إلا أنه على الرغم من هذا فقد ظلت خصائص الزهد العامة تجمعها كلها، والمنهج والخصائص وأوجه الاتفاق العامة هو موضوع حديثنا في الباب القادم.

obeikandl.com